اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



تراثنا

العُمانيُّون وقلعة مُمباسا

تأليف
مبارك بن علي الهنائي

باللغة الإنجليزية

يوليو ١٩٨٠

ترجمة : محمد أمين عبد الله

مقدمة

يعود الفضل فى فكرة تجميع تفاصيل حياة المؤرخ محمد ابن عبد الله الذى اكتسب شهرة فى تسجيل الأحداث التاريخية ، مثل تاريخ العقيدة ، إلى صديقى المرحوم الشيخ الأمين بن على المزروعى ، الذى اقترح علىّ الفكرة وتحمل مشقه تجميع البيانات من مصادر مختلفة ، ولا يهدف هذا الكتيب إلى سرد تاريخ العقيدة فحسب ، بل يهدف أيضا إلى الحفاظ على الشعر والأغانى المتعلقة به إلى جانب مآثره .

وبالرغم من أن الكثير من مخطوطات الشعر السواحلى مدون ، غير أن عدداً من الأبيات التى احتواها هذا الكتاب لم تكتب من قبل ، ولحسن الحظ فإن بعض الذين عاصروا تلك الفترة مازالوا يتذكرون الأحداث التى ترتبط بهذه المنظومات ، وقد ساعد الأسلوب التقليدى المتبع فى معظم هذه المنظومات على سهولة حفظها وتذكرها .

وتعتبر منظومة « أوتنزى » المذكورة فى نهاية هذا الكتيب تعبيرا صادقا عن الحدث كله ، وبالرغم من أنها لاتعتبر من روائع الأدب إلا أنها تستحق هذه المكانة الخاصة فى تاريخ الأدب السواحلى

حيث أنها تظهر ما للعقيدة من أثر على يد أحد المؤلفين المعاصرين، وقد تم تجميع معظم أبيات هذه القصيدة من أحد مؤلفى الأغانى فى « تاكونجو » ويدعى « ماتوانا واسوبيا » كما تم استكمال باقى الأبيات من « الشيخ جمعة بن على باغوزى » وهو أحد الرجال المشهورين فى ممباسا بدقته فى جمع أكبر عدد من المؤلفات الأدبية

وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ جمعه قد زامل محمد بن عبد الله فى حصن ممباسا ، وكانت له هو الآخر تجربة مع المشاكل التى نشأت هناك فى ذلك الحين . وقد أفادنا ذلك كثيرا فى تسجيل ذكرياته عن الأحداث التاريخية المدونة فى « لأوتنزى » ، هذا بالإضافة إلى ماقدمه لنا من المنظومات التى جمعها من الشعر التقليدى

ولا يفوتنا أن ننوه بالمساعدة التى قدمها الشيخ « عبد الكريم ابن تلاسام » المشهور باسم « باعبدى » والمعروف بموهبته فى قوة الذاكرة .

وأخيرا فإننا نوجه الشكر لكل هؤلاء الأصدقاء وكل الذين ساعدوا فى إخراج هذا الكتيب ، والذين رحلوا عنا للأسف ، كما نقدر بكل إجلال واحترام تلك الذكريات ، وجدير بالذكر أنه بمقارنة الأبيات التى جمعها أصحاب تلك الذكريات من المخطوطات التى كتبها الشيخ « أيوب » فإنه يتضح لنا مدى صحه تلك الروايات وأهميه الاحتفاظ بتلك الأبيات لفترة طويلة ، خاصة إذا علمنا أن الفارق الزمنى بين السجلين يبلغ حوالى نصف قرن .

المحتويات

شرقى إفريقية من الأزمنة الأولى(١)

من النادر أن تجد فى العالم مناطق عانت من الاستعمار أكثر مما عانى ساحل شرقى إفريقية ، فقد احتل الآشوريون والكلدانيون والمصريون والفينقيون والعرب والبرتغاليون هذه البلاد فى أزمنة مختلفة ، وما زالت آثار احتلالهم باقية فى عادات ، وتقاليد المنطقة الساحلية ، إلى جانب آثارهم فى المستوطنات التى عاشوا فيها فى تلك الأحقاب .

فشعار القوة عند الآشوريين ، القرن ، وهو موجود فى جزيرتى (لامو) و (بيته) ، كما أن سفن « الداو » فى شرقى إفريقية تعد امتدادا للسفن الشراعية السومارية ، والسفن ذات الأشرعة المثلثة تعتبر تطويرا للسفن ذات الأشرعة المربعة لقدماء المصريين ، كما أنه مازالت تمارس حتى الآن فى شرقى إفريقية

---

(١) يعكس هذا الفصل الإدارة المحلية السائدة وقت كتابته ، كما يتضمن بعض المغالطات و الأخطاء التى تم تصحيحها فى الحواشى . ويتضمن بعض الأحداث التى تعتمد على التخمين أو الحدس ولم يتم إثباتها بسند تاريخى أو أثرى فمثلا لايوجد مايثبت أن الآشوريين أو الكلدانيين أو الفينقيين قد احتلوا ساحل شرقى إفريقية ، كما أن شعار القرن رمز القوة لايقتصر على حضارة الآشوريين .

تقاليد قدماء المصريين والكلدانيين فيما يتعلق بطقوس الديانات والسحر والتعاويذ .

وقد أبحر الفينقيون حتى ميناء « سفالة » ، وهو ميناء منطقة « أوفر » ، كما وصل الهندوس فى رحلات تجارية إلى شرق إفريقية ، وتكشف بعض العملات وقطع البرسولين عن أن السفن الصينية أيضا وصلت هي الأخرى إلى شرق إفريقية فى رحلات تجارية .

غير أنه من الجدير بالذكر أنه لم يكن لتلك الحضارات المختلفة أثر فى تطوير الساحل الشرقى لإفريقية كما كان للعرب . فقد ظل العرب يحكمون أجزاء كبيرة من القارة الإفريقية حتى وصول الغزو الأوربى الذى بدأ بالبرتغاليين ، ولكن بقى أثر العرب واضحا حتى اليوم على كافة الأجزاء الشرقية والوسطى من إفريقية.

ففى الأزمنة القديمة أبحرت الأساطيل العربية إلى شرق إفريقية ، إما بهدف الغزو أو بهدف التجارة ، حيث كانوا يقلعون فى رحلاتهم إلى شرق إفريقية فى فصل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ويعودون إلى الجزيرة العربية مع اتجاه الرياح الموسمية ، وقد كتب أحد المؤرخين عن ساحل شرق إفريقية عام ٦٠ بعد الميلاد ، فذكر بأن القيادات التى كانت تحت سيادة الدولة العربية والذين كانوا يحكمون تلك البلاد فى هذه الفترة والعرب من موزا (مدينة بخا فى اليمن) كانوا يتاجرون ويستقرون على الساحل ، كما أشار إلى السفن

والقوارب التى كان يتم صنعها من جذوع الأشجار ، وشباك الصيد التى تشبه السلة المستخدمة فى هذا العصر ، والتى يمكن مشاهدتها حتى الآن .

وقد كان لظهور الإسلام فى القرن السابع الميلادى آثار هامة على ساحل شرقى إفريقية ، حيث بدأ تسجيل تاريخ المنطقة ، وبدأ بناء إمبراطورية عربية كبيرة .

ففى عام ١٥ بعد الهجرة (٦٣٦ ميلادية) عين عثمان بن العاص حاكما على البحرين وعمان فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وإن كان من المعروف أن الخلافة على عمان ظلت خلافة إسمية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، فى الفترة مابين ٦٥ — ٨٦ هجريه (٦٥٥—٧٠٦ ميلادية) ففى عهد هذا الخليفة أرسل حاكم العراق الشهير ، الحجاج بن يوسف الثقفى ، جيشا كبيرا على رأسه أفضل اللواءات لإخضاع عمان لحكمه ، وانهزمت القوات العمانية فى ذلك الحين بقيادة سليمان وسعيد بنى الجلندى . وفرا مع عائلاتهما يتبعهما بعض أفراد قبيلتهما ، واستقروا فى أرض الزنج ، حيث كان هذا الاسم يطلق على ساحل شرقى إفريقية فى ذلك الوقت ، وظهرت بعض المستعمرات العربية الأخرى فى هذه الفترة ، حتى إنه عندما وصل البرتغاليون عام ١٤٩٨ ميلادية وجدوا أن

إمبراطورية الزنج كانت قد تكونت (١) .

ويعتبر تاريخ شرق إفريقية من عام ١٤٩٨ حتى عام ١٧٣٠ ميلادية سجلا للصراع على السيادة بين البرتغاليين من جانب ، وبين أئمة وحكام عمان من جانب آخر (٢) . فقد هبط « فاسكو دى جاما » فى ممباسا فى إبريل عام ١٤٩٨ ، وتم استقباله بحذر وتخوف ، غير أن الترحيب به فى ماليندى كان تاما ، وقد كان حاكمها على عداء مع حاكم ممباسا ، واستغل البرتغاليون هذا الصراع الداخلى وقرروا بناء إمبراطورية لهم فى شرق إفريقية .

ويعزى عدم الترحاب بهم فى ممباسا إلى ألوان النهب التى عانت منها المدينة على يد « بدرو الفارسى كابرل » عام ١٥٠٠ م ، وأيضا لما حدث فى مدينة (كيلوا) الدولة الحليفة لممباسا . ومنذ ذلك الحين وحتى القرن الثامن عشر كانت ممباسا كما جاء فى قول سير تشارلز إيليوت مركز الصراع الذى غالبا ما كان يتم بأساليب الحرق ، ولا توجد مدينة فى العالم حوصرت ونهبت وحرقت مثلما حدث لممباسا .

وجاء بعد ذلك بست سنوات « فرانسيسكو دالميدا » أول نائب

(١) لم تتكون ابدا امبراطورية للزنج ، فقد كانت كل مستعمرة من المستعمرات العربية على ساحل شرق إفريقية مستعمرة مستقلة .

(٢) كان أول تدخل حقيقى لسلطان عمان على ساحل شرق إفريقية عام ١٦٥٢ م

ملك برتغالى للهند ، جاء لينهب ممباسا (١) ، وضعفت قوة كل من ممباسا ، وكيلوا ، ولامو ، وبراوا لفترة ، غير أن ممباسا لم تهدأ لفترة طويلة ، ففى عام ١٥٢٨ هاجمها « نوفودا كونها » حيث أحرقها واستولى عليها بعد حصار دام أربعة شهور (٢).

واستمر حكم البرتغاليين بعد ذلك لمدة خمسين عاما فى شرق إفريقية مع وجود بعض الاضطرابات البسيطة .

وقرب نهاية القرن السادس عشر خضعت البرتغال لحكم أسبانيا(٣) ، إلى عام ١٦٤٠م حيث ضعفت قوة كل من البرتغال وأسبانيا ، الأمر الذى شجع الشعوب الخاضعة لهما على الأمل فى التحرر .

ففى عام ١٥٨٥ نجحت ممباسا بمساعدة السلطان التركى « أمير على بك » فى طرد البرتغاليين ، غير أنهم عادوا مرة ثانية بمساعدة إحدى القبائل الوطنية المعروفة باسم « بازيمبا » وهاجموا ممباسا ، وهزموا على بك ، ثم استداروا على قبيلة بازيمبا وتمكنوا من دحرها بمساعدة ألوازيمبو وفكر البرتغاليون فى ذلك الوقت فى

---

(١) لم يتم نهب مدينة ممباسا على يد كابرل عام ١٥٠٠ ، فقد كان أول نهب لممباسا على يد فرانسيسكو دالميدا عام ١٥٠٥ .

(٢) فى الواقع تم حرقها بواسطة البرتغاليين بعد أربعة أشهر من الأحتلال

(٣) خضعت البرتغال لحكم أسبانيا فى الفترة من ١٥٨٠ حتى ١٦٠١ م .

ضرورة تقوية وجودهم العسكرى فى شرق إفريقية ، وإنشاء حامية عسكرية لهم فى ذلك المكان ، حيث أصبح عليهم مواجهة خطر السفن الإنجليزية والهولندية إلى جانب مواجهة الاضطرابات فى ممباسا نفسها ، وقد بدأت هذه السفن تقوم بزيارات متكررة لموانىء الساحل الشرقى لأفريقيا ، فبدأ البرتغاليون فى إنشاء قلعة ممباسا مستخدمين الأحجار الجاهزة من البرتغال ، وقد وضعوا لهذه القلعة نفس تصميم قلعة « جون بابتست كيراتو » وقد تم بناء القلعة على صخور مرجانية طبيعية ، وتم حفر خندق مائى حولها ، وتم الانتهاء من بنائها خلال عامين تقريبا (١) .

وكان يحكم ممباسا فى ذلك الوقت شيخ « بن هشام » الملقب باسم « شيخ مقيتا » ، وبعد وفاته عين البرتغاليون مكانه حاكم ماليندى واسمه «احمد» الذى خلف السلطان محمد ثم السلطان حسن ، وقد تعارك هذا الحاكم مع البرتغاليين ، وفر ، فخلفه ابنه يوسف الذى تلقى تعليمه فى « جوا» وقد اعتنق الديانة المسيحية ، ويقال أنه أصبح شيخا فيما بعد عام ١٠٤٠ هـ (١٦٣٠ م) وتوفى فى جدة بعد عشر سنوات . وجدير بالذكر أنه فور توليه السلطة قام بذبح البرتغاليين المقيمين بالحصن وأنشأ لنفسه حكما مستقلا ، غير أنه

---

(١) حصن يسوع مبنى من الأحجار المرجانية ، ولم تستخدم الأحجار البرتغالية وقد بدأ العمل فى بناء الحصن عام ١٥٩٣ م

فى نفس العام تغلب عليه « فرانسيسكو دامورا » وفر بعد ذلك إلى الجزيرة العربية ، ثم أعاد البرتغاليون بناء القلعة .

وتسجل النقوش على بوابة تلك القلعة الوحشية والقسوة اللتين مارسها البرتغاليون فى ذلك الحين(١) .

---

(١) قتل شيخ بن هشام من جانب « سيجو » خلال إحدى المعارك وذلك بتاريخ ١٥٩٢ أى قبل احتلال البرتغاليين لمباسا . وكان أول سلطان لمباسا من سلالة ماليندى هو السلطان احمد الذى خلف السلطان حسن والذى قتل عام ١٦٤١ بتمريض القائد البرتغالى ، وتبعه أخوه محمد ، غير أنه لم يعتبر أى منهما حاكما شرعيا ، وفى عام ١٦٣١ جاء السلطان محمد يوسف ابن السلطان حسن والمعروف باسم (دوم جير ونيمو تشينجولا) والذى ذبح البرتغاليين عام ١٦٣١ وبعد هزيمتهم أرسل بعثة لاستعادة الحصن (ديسمبر ١٦٣١ — مارس ١٦٣٢) ثم فر إلى الجزيرة العربية وتوفى فى جدة عام ١٦٣٨ .

تم سرد تاريخ مباسا فى عهد البرتغاليين بواسطة (جوسعاس ستراندز) فى أحد مؤلفاته المنشورة فى برلين عام ١٨٩٩ والتى أعيد نشرها باللغة الإنجليزية بواسطة (جين أوف ووك ودك) مع ملاحظات لنجى اس كيركمان) وعنوان المؤلف عهد البرتغاليين فى شرق إفريقيا ١٩٦٨ .

ويمكن ترجمة النقوش المذكورة كالتالى : فى عام ١٦٣٥ نصب فرانسيسكو دى سيكساس البالغ من العمر ٢٧ عاما حاكما لمدة أربعة سنوات لهذا الحصن وأعاد بناءه وأضاف إليه غرفة الحراسة وأخضع سكان الساحل لصاحب الجلالة ، حيث كان السكان فى حالة غضب وثورة ضد الملك الطاغية ، كما اخضع كلا من ممالك (أوتوندوا) (ومانلدرا) (ولوزيوا) و(جاكا) لحكم صاحب الجلالة وقد انزل العقوبة بنفسه على كل من (بته) وسيو التى كانت غير متوقعة فى الهند ، وهدم حوائط —

وفى عام ١٦٤٩ لم يعد السكان يطيقون تحمل ضغط وقسوة وطغيان حكامهم ، فطلبوا المساعدة من الإمام سلطان بن سيف ، إمام عمان (٢).

وبعد خمس سنوات من الحرب استولى الإمام على الحصن وعين « محمد بن مبارك » حاكماً على البلاد ، غير أن البرتغاليين تمكنوا من إخراج العرب ، واستمر الصراع حتى عام ١٦٩٨ ، عندما استعاد العرب الحصن .

وفى عام ١٧١١م قام « سيف بن سلطان الأول ، المعروف باسم « قيد الأرض » وإمام عمان ، بتعيين ناصر بن عبد الله أحد أفراد

ـ المدن ، كما عاقب « المسيو ستجلوز » وأدب البمبا وأعدم على مسئوليته كل الحكام المتمردين وقيادات المواطنين ، ودفع الجزية كاملة لصاحب الجلالة ، لذا فقد تم منحه لقب فارس القصر الملكى مقابل خدماته الجليلة لصاحب الجلالة ، وذلك بعد أن كان قد تم منحه وساماً آخر مقابل خدماته الأخرى وإعطاؤه منحة سنوية ٥٠ « ملريس » عملة نقدية برتغالية ، ومنحة السلطة على « جافانا باتان » لمدة ست أعوام والسلطة على « بلجدن » لمدة أربعة أعوام وأعطى الحق ليعيش فيها ما يشاء طوال مدة حياته وفى حالة وفاته .

خلال حكم بترودى سيلفا عام ١٦٣٩ .

(٢) لم يستول العمانيون على الحصن فى ذلك الوقت ، والواقعة المذكورة ربما تعنى نهب البرتغاليين للمدينة فى إحدى الغارات عام ١٦٦١ غير أن وقوع الحصن فى أيدى العمانيين كان فى ١٣ ديسمبر ١٦٩٨ بعد حصار دام عامين وتسعة أشهر .

عائلة المزروعى حاكماً لممباسا ، غير أن جنود ناصر قاموا باعتقال قائدهم وتعيين أحدهم واسمه « سيس رمب » قائداً لهم ، غير أن كبار رجال ممباسا مثل « مويني نجوتى بن مونيزاجو » ومويني مول بن حاجى « وموالم ندو بن مويشانى » والشيخ ابن أحمد أعلنوا الحرب على « سيس رمب » ، وتلت ذلك فترة من الفوضى والصراع على السلطة بين حكام ممباسا وبات وإمام عمان ، وبذلك تمكن البرتغاليون من استعادة ممباسا غير أنهم طردوا من كافة ممتلكاتهم فى ساحل شرقى إفريقية شمال موزمبيق عام ١٧٣٠ .

وعند ما تولى سلطان بن مرشد الإمامة عام ١٧٣٨ عين أحد رجال المزروعى ويدعى « محمد بن عثمان » والياً على ممباسا ، وخلفه عام ١٧٤١ « أحمد بن سعيد آل سعيد » مؤسس أسرة « آل بوسعيد » وفى عام ١٧٤٦ تمرد حاكم ممباسا على بن عثمان (الذى خلف أخاه محمد بن عثمان) على الإمام ، وتبع ذلك صراع طويل بين حاكم ممباسا و « بته ولامو » والإمام .

وفى عام ١٨٢٤ طلب سليمان بن على حاكم ممباسا من الكابتن فيدال الذى كان من حاشية صاحب الجلالة اس ليفن إعلان الحماية البريطانية على ممباسا . وعندما رفض الكابتن طلب الحاكم قام بنفسه برفع العلم ، غير أن الكابتن أوين الذى وصل فيما بعد إلى بارا كوتا أمر بإنزال العلم ، وعين الملازم ريتز مسئولا عن

عن ممباسا ، وقامت مجموعة من ليفن وباراكرتا باقتحام منزل على الشاطئ ما زال يعرف باسم منزل ليفن ، غير أن الحكومة البريطانية لم تكن على علم بموضوع الحماية حتى ذلك الوقت .

ولم تنته الثورات حتى عام ١٨٣٧ ، عندما أعلن السيد سعيد بن سلطان نفسه حاكماً على كل ساحل شرقى إفريقيا ، من رأس الغضروفى فى الشمال حتى رأس « دجادو » فى الجنوب .

وقد اعتقل حاكم ممباسا وهو من عائلة المزاريع ، واسمه راشد بن سالم بن حمد ، ونفى إلى الخليج مع عدد من أتباعه .

وجدير بالذكر أنه لم تحدث تغيرات جوهرية فى القلعة فى ظل حكم العرب ، وما تزال البذلات العسكرية للقادة البرتغاليين محفوظة حتى اليوم ، وإن كان هناك بعض التغيرات الطفيفة فى الداخل ، مثل إعادة تنظيم الكنيسة الصغيرة وتحويلها إلى مسجد ، كما لا يزال بعض الأعمدة الخشبية موجودة بنقوشها من الآيات القرآنية ويحمل العمود الداخلى للبوابة الداخلية نقوشاً لآيات قرآنية مكتوب عليها تاريخ ١٥ رمضان ١٢٨٤ (٦ فبراير ١٨٣٣) :

وفى داخل المسجد توجد أعمدة منقوشة ، وقد نقش على العمود العلوى فى الجانب الجنوبى آيات قرآنية سطورها الأولى غير

واضحة . كما نقشت على الجانب الجنوبى من العمود بعض الآيات القرآنية وعلى الجانب الشمالى من العمود نقشت الآية القرآنية التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهَ الذى لا إلَه إلاَّ هُوَ الحىُ القَيُّوم لاَ تَأخُذهُ سِنة وَلاَ نَوْمٌ لَه ما فى السَّموات وَمَا فى الأرض ، من ذا الَّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنِه يَعلَمُ مَا بَيْن أيْدِيهمْ ومَا خَلْفَهُم ولا يُحيِطُون بِشَىْ من علمه إلاَّ بما شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيهُ السَّماوَاتِ وَالارْضَ ولاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَهُوَ العَلىُّ العَظِيمُ » .

كما نقشت على الجانب الجنوبى من العمود المثبت فى السقف الآية القرآنية :

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنَا أعْطَيِنَاك الكَوثَر ، فَصل لِربِكَ وَانْحر إنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبْتَر »

« قُلْ هُوَ اللهُ احد ، الله الصمَد لَم يَلِد وَلَم يُولَد ولَم يَكنْ لَهُ كُفُواً أحَد »

اشخاص الأحداث

١ — عبد الله بن مسعود بن سالم المزروعى : ولد عام ١٢١٢هـ ١٧٩٧ م وتوفى فى تاكونجو عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) وكان شاعراً ومعروفاً بنظمه لأكبر قدر من الأغانى . ووالده مسعود كان أحد الذين تم إبعادهم إلى بندر عباس عام ١٨٣٧ .

٢ — عبد الله بن مبارك فجاشوينى : والد محمد بن عبد الله هاجر إلى شرقى إفريقية من « دوان » بحضرموت فى عهد السيد سعيد بن سلطان ، واستقر فى بانجانى جنوب تانجا ، وانتخب إماماً حوالى عام ١٨٤٢ ، ومات بعد ذلك بفترة وجيزة مخلفاً طفلا صغيراً .

٣ — عبد الله بن نابر : أقام فى بجزى وجزيرة ىمبا وكان صديقاً للشاعر مسعود بن سعيد ومؤيداً له فى موضوع الإمامة .

٤ — عبد الله مواكيتا : رئيس قبيلة ديجو ، وكان من المعارضين للسلطان ماجد بن سعيد ، سلطان زنجبار .

٥ — على بن ناصر : كان والياً على ممباسا فى عهد السيد برغش ابن سعيد ، وتوجه إلى مكة عام ١٨٧٠ م.

٦ — شريف أنور : وهو المعروف باسم « شيكو » كان رجلا طيباً ، ورافقه السلطان إلى زنجبار للدفاع عن قضيته أمام السيد برغش ، واتهمه الشاعر سعود بممارسة السحر والشعوذة .

٧ — السيد برغش بن سعيد بن سلطان : سلطان زنجبار فى الفترة من عام ١٨٢٧ هـ حتى ١٣٠٦ هـ (١٨٧٠ — ٨٨ م) .

٨ — بريرارفن : سلطانة بسينا ومدغشقر .

٩ — بورى : أحد زعماء المنطقة الساحلية من تنجانيقا فى عهد السلطان السيد ماجد .

١٠ — السيد أحمد بن ثوينى : سلطان زنجبار ، تولى الحكم فى زنجبار من ١٣١١ هـ (١٨٨٣ م — ١٨٩٦ م) .

١١ — عيسى ملى : عين مترجماً فى يناير ١٨٧٥ لأدميرال أسطول السلطان السيد برغش ، وأرسل إلى ممباسا .

١٢ — جمادا تانجى بن شمب : القائد البلوشى لفرقة السيد سعيد فى عام ١٨٤٩ ثم أصبح مرافقاً عسكرياً لمحمد بن عبد الله .

١٣ — خميس بن حمد : حاكم ممباسا ، خلف أخاه سالما ، ولكنه تنازل عن الحكم عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٥ م) وخلفه راشد بن سالم .

١٤ — لا لا جمادار : قائد حامية السلطان السيد برغش فى زنجبار .

١٥ — السيد ماجد بن سعيد : سلطان زنجبار ١٢٧٣ — ١٢٨٧ هـ (١٨٦٦ — ١٨٧٠ م) .

١٦ — ماجد بن نايرالرجبي : حوالى ١٨٠٠ — ١٨٨٠ م أحد الشعراء وصديق الشاعر سعود بن سعيد ، وشريك الشيخ مبروك .

١٧ — مسعود بن سالم المزروعى : والد عبد الله بن مسعود الشاعر ، وهو مؤلف قصيدة ، وقد تم إبعاده إلى بندر عباس فى عام ١٨٧٣ مع بعض مؤيدى المزروعى المبعدين .

١٨ — مطر بن محمد الحوسنى : قائد عسكرى فى زنجبار ، وقد تم إرساله مع سيف الأمين فى يناير ١٨٧٥ لتطهير ممباسا من المحتلين .

١٩ — مبروك بن راشد بن سالم المزروعى : وهو آخر المطالبين بالاستقلال من قبيلة المزاريع ، وقد ثار ضد سلطان زنجبار ، وضد الحكم البريطانى ، ومراكز القيادة فى جازى وبعض الأماكن الأخرى ، ونظم حملة لاستعادة سلطة المزاريع

٢٠ — محمد بن عبد الله بن مبارك بن ثويني والمعروف باسم العقيدة — ولد فى حصن ممباسا عام ١٢٥٣ — ١٢٥٤ هجرية (١٨٣٧ — ١٨٣٨ م) وشغل منصب والده فى وظيفه القائد فى ظل الحكم السيد ماجد ، ولكنه عارض السلطة وتم استبعاده .

٢١ . محمد بن أحمد بن شيخ المومباسى — ١٨٥٠ — ١٨٩٠ م) كان أحد الرجال المثقفين والقياديين فى ممباسا ، وكان شاعرا وصديقا ومؤيدا للشاعر سعود بن سعيد .

٢٢ — محمد بن على باكشمر : صهر محمد بن عبد الله بن مبارك نجاشويني .

٢٣ — محمد بن على بن منصور الهنائى : أحد القياديين فى ممباسا وقد فوض للتفاوض مع رجال العقيدة عام ١٨٧٤ م .

٢٤ — محمد بن سليمان البوسعيدى : كان وزيرا بزنجبار للسلطان السيد برغش ، ولكنه أرسل إلى ممباسا عام ١٨٧٤ لخلع العقيدة .

٢٥ — مصطفى بن قما دار تنجى : من مؤيدى الشاعر سعود ابن سعيد .

٢٦ — هو انا كنج وابا : زعيم قبيلة « زيجو » الذى خلف « توركاموانا » فى عهد السلطان السيد ماجد ، وكان زعيم قبيلة

زيجو ، التى ثارت ضد حكم السلطان السيد ماجد .

٢٧ — ناصر بن سعيد : كان وزيرا للسلطان السيد برغش عام ١٨٧٠ ، وقد أيد سياسة الشاعر سعود بن سعيد .

٢٨ — راشد بن على المنذرى : أعلن فى حصن ممباسا تأييده لتعيين السلطان السيد برغش للعقيدة كوال لممباسا عام ١٨٧٢ م .

٢٩ — راشد بن خميس المزروعى : والى تاكونجو وأحد أقرباء زعيم قبيلة المزروعى ، وكان معروفا للشيخ مبروك بن ناصر .

٣٠ — راشد بن سالم بن حمد المزروعى : تولى الحكم عام ١٢٥٢ هـ (١٨٥٣ م) كآخر وال لممباسا من عائلة المزروعى . هوجم وهزم من جانب السلطان السيد سعيد عام ١٨٧٣ ، ونفى مع بعض المؤيدين من أتباعه إلى بندر عباس .

٣١ — رضوان بن هنائى : وكان صديقا ومؤيدا للشاعر سعود بن سعيد ، وسجن مع العقيدة .

٣٢ — سعيد بن عبد الله بن مبارك . كان شقيق العقيدة الذى أعلن الحرب ضد المزاريع ، وعلى رأسهم الشيخ مبروك بن راشد .

٣٣ — سعيد بن على الدوان : كان الثانى فى قيادة العقيده عام ١٨٧٤ م

٣٤ — السيد سعيد بن سلطان : سلطان زنجبار من ١٢١٩ إلى ١٢٧٣ هـ (١٨٠٤ إلى ١٨٥٦ م) .

٣٥ — سالم بن حمد بن محمود المزروعى : كان حاكما لممباسا عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٤ م) .

٣٦ — سالم بن خلفان : ولد الشيبة ، كان واليا لممباسا عام ١٨٧٤ م ، ومعارضا للعقيدة .

٣٧ — سالم بن خميس : من تاكونجو شقيق الشيخ راشد بن خميس المزروعى ، والى تاكنجو وقاد فرقا عام ١٨٧٥ م للمساعدة فى طرد العقيدة منها .

٣٨ — سيف العامر : كان قائدا حربيا فى عهد السلطان السيد برغش عام ١٨٧٥ م ، وذهب إلى ممباسا لتخليصها من رجال العقيدة .

٣٩ — سيف بن سليمان الدرمكى . من مالبندى ، عين نائب والى ممباسا عام ١٨٧٤ م عندما ذهب سالم بن خلفان إلى زنجبار ليقود الحملة ضد العقيدة .

٤٠ — سليمان بن سليمان : كان مندوب العقيدة وأوفد إلى رئيس قبيلة المزاريع مع بعض الهدايا لاسترضائهم .

٤١ — سليمان بن على بن عثمان المزروعى : والى ممباسا عين

١٢٣٩ (١٨٢٣ م) وخلع من السلطة عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٦ م) حيث تولى الحكم سالم بن حمد .

٤٢ — سليمان بن حمد : والى ماليندى عام١٨٧٥ —قاد الحملة إلى ممباسا لتخليصها من العقيدة .

٤٣ — سعود بن سعيد المعمرى : ولد عام ١٨١٠ ومات ١٢٩٥ هـ وعرف بشعره وقيادته السياسية ضد العقيدة ، وكان صديقا ومناصرا لرئيس قبيلة المزاريع الشيخ مبروك بن راشد .

١ ـ سرد مختصر لتاريخ حياة محمد بن عبد الله

لايعرف بالتحديد تاريخ ميلاد بطل هذه القصة ، غير أنه من المؤكد أنه ولد عام ١٢٥٣ أو عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٧ ــ ١٨٣٨م) فى حصن اليسوع فى ممباسا ، ويدعى والده عبد الله بن مبارك بخاشويني ، الذى هاجر إلى ساحل شرقى إفريقية من « دوان » فى حضرموت فى عهد السلطان السيد سعيد بن سلطان حاكم عمان وزنجبار ، وقد استقر فى بنجانى ، وهى ميناء جنوب مدينة تنجا فى إقليم تنجانيقا ، والذى أصبح فيما بعد تحت سيطرة سلطنة زنجبار .

وقد كان السلطان السيد سعيد فى ذلك الوقت مشغولا بجهوده فى حرمان قبيلة المزروعى من حقهم فى الاستيلاء على ممباسا ، وقد أدعوا سيطرتهم وحكمهم عليها .

وفى عام ١٨١٢ أقام السيد سعيد مقر حكمه فى زنجبار ، ومافيا وكيلوا وبمبا ، وأجزاء أخرى كثيرة ، وبعض مناطق سواحل « مرمى » غير أن ممباسا وإخوتها ، لامو ومدينة بته لم تخضع لهذا الحكم ، وقد كان هذا يتعارض مع طموحات السيد سعيد فى إقامة إمبراطورية له على ساحل إزانيا ، مما جعله يفكر فى ضرورة الاستيلاء على ممباسا وقلعتها ، نظرا لأهميتها فى المنطقة ، حيث أنها تتحكم فى طريق التجارة البحرية .

وقد حاول السيد سعيد عدة محاولات فى الاستيلاء على ممباسا إلا أنه لم يوفق ، حتى أنه أضطر أن يأمر كافة الممالك الخاضعة له أن تمده بقواتها للمساعدة ضد المدينة المتمردة .

ووفقا لهذا التحالف قام عبد الله بن مبارك بقيادة خمسة وعشرين متطوعا لمساعدة السلطان فى هجومه على ممباسا ، والنيل من قبيلة المزروعى .

وبالرغم من الإدعاء بالحق فى حكم ممباسا من جانب السلطان إلا أن الحكام من قبيلة المزاريع لم يعترفوا بذلك ، وكانوا يمارسون الحكم على أساس أنهم دولة مستقلة ، واحتفظوا بحق تعيين الوالى أو الحاكم ، حيث تعين سالم بن محمد المزروعى واليا لممباسا ، خلفا لسليمان بن على المزروعى ، الذى استطاع أن يكسب اهتمام الكابتن أوين ، الذى انشغل فى عمل مسح لساحل شرقى إفريقية ، وتمكن من إقناعه بفرض الحماية البريطانية على ممباسا ، لضمان استمرار حكم المزروعى لممباسا ولأراضيها الساحلية .

غير أن الحكومة البريطانية لم تؤكد موافقتها على مافعله كابتن « أوين » وقام السيد سعيد مرة أخرى بمشروعه لإخضاع ممباسا . وفى عام ١٨٢٧ قام السيد سعيد شخصيا بقيادة سفينته ، يتبعه أسطول مكون من عشر سفن حربية أخرى تحمل ١٢٠٠ مقاتلا ووصل إلى ممباسا .

وبعد يومين أو ثلاثة من المفاوضات مع بعثة الحصن فتح نيرانه بادئا المعركة ، غير أنه لم ينجح فى هزيمة المزروعى ، واقتنع من هجماته غير الناجحة بأن قواته غير متكافئة مع قوة المزروعى ، فحاول أن يتوصل إلى اتفاق مع المزروعى ، أساسه إعترافهم به كسيد للبلاد ، مقابل أن يعطيهم الحق فى حكم ممباسا ، وتأكيده تعيين سالم بن محمد المزروعى فى مكتبه ، كحاكم ، على أن يدفع له المزروعى نصف عائدات الجمارك ، وأن يحتفظ سالم بنصف قوات السيد سعيد فى الحصن لأغراض الحماية .

وقد صدق كل من الطرفين على هذه الشروط فى ١١ يناير ١٨٢٨ ، وتم الاتفاق على هدنة بين الطرفين ، وإن كان كل منهما لايكن فى نفسه احتراما لهذه الهدنة ، وقد تمكن السيد سعيد من زيادة قواته فى الحصن ببطء وحرص حتى أصبحت القوة الحامية حوالى مائتى رجل ، وقد استطاع أن يستخدمها فى إبعاد الوالى سالم واتباعه من قبيلة المزروعى ، من الحصن ، حيث اقتحم عليهم أبواب الحصن ، وتمكن السيد سعيد من إصلاح الحصن وأنشأ حامية جديدة قوامها ٣٥٠ جنديا .

وبالرغم من هذا الخرق الصارخ للهدنة ، فقد كان من الممكن أن يقبل المزروعى هذا الوضع بشرط الاحتفاظ بسالم بن محمد حاكما للمدينة ، غير أن السيد سعيد قرر أن يتخلص نهائيا من

سيطرة المزروعي على ممباسا ، فعين ناصر بن سلطان حاكم بمبا، قائدا للحصن والحامية ، كما جعله حاكما للمدينة بدلا من الوالى المزروعي .

وقد كان هذا أمراً صعبا على قبيلة المزاريع ، فعندما وصل ناصر بن سلطان فى مايو ١٨٢٨ تلقى إنذاراً بمغادرة المدينة والحصن خلال أربع وعشرين ساعة، غير أنه رفض ، وتمركز فى الحصن وفتح نيرانه على المدينة، حيث كانت تتواجد المزاريع وأنصارها ، غير أن قوات المزاريع صمدت ، وحاصرت الحصن منذ شهر مايو حتى ديسمبر ، فى حصار أدى إلى تدهور الحصن نتيجة الجوع والعطش ، مما أدى إلى استسلام الحامية ، ووضع فيها ناصر ابن سلطان فى القبو ، وسمح بعودة قوات السيدسعيد إلى زنجبار ، واستولى المزروعي مرة أخرى على القلعة والميناء ومدينة ممباسا .

وقد حاول السيد سعيد ، الذى كان مشغولا فى ذلك الوقت بالاستيلاء على البحرين ، إنقاذ الحامية بإرسال قوات لشن حرب مضادة ضد المزروعي : غير أن الحصن كان قد استسلم قبل أن تصل السفينة إلى مياه ممباسا ، وحتى شهر ديسمبر ١٨٢٢ م لم يتمكن من الهجوم .

وقد كان هجومه فى ديسمبر سنة ١٨٢٩ فاشلا ، حيث هبط على ممباسا بثمانى سفن حربية وقوات تقدر بـ ١٥٠٠ رجل ، محاولا مفاجأتهم

من الضواحى ، لإرباك وضع رجال قوة المزاريع الذين كانوا مستائين أشد الاستياء ، فقاموا بذبح ناصر بن سلطان دليلا على إصرارهم على مقاومة السيد سعيد .

وقد حاول السيد سعيد القيام بعدة هجمات للاستيلاء على الحصن ، غير أن قواته هزمت ، واضطر أخيرا إلى طلب الصلح مع الوالى سالم بن محمد بنفس شروط المعاهدة السابقة ، مع عدم السماح للسيد سعيد بالاحتفاظ بقوات داخل الحصن .

وخلال هذه الحملة الأخيرة للسيد سعيد أتيحت الفرصة لعبد الله بن مبارك للقيام بعمل إيجابى فيما يتعلق بشئون ممباسا ، وفقا للنظام الذى كان معمولا به ، والذى ينص على مشاركة أتباع السيد سعيد فى القرى بطول الساحل فى تدعيم قواته .

وقام عبد الله بن مبارك بقيادة خمسة وعشرين متطوعا بمساعدة جيش السيد سعيد فى هجومه على المزاريع ، غير أن هذا الهجوم لم ينجح ، ولم يسمع عن عبد الله بن مبارك بعد ذلك لمدة سبع سنوات .

واستمر الوالى المزروعى سالم بن محمد حاكما لممباسا حتى وفاته عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) وخلفه أخوه خميس بن محمد كوالٍ اسمى ، وانقسم معسكر المزروعى إلى شقين ، أحدهما ، يتبع خميس ، والآخر يتبع راشد بن سالم .

وفى عام (١٢٥٢هـ١٨٣٦ م) نشب الصراع ، وأبعد خميس وعين سالم واليا ، وفقا لرأى الأغلبية من المزاريع ، والكثير من رجال المدينة ، غير أن بعض أبناء ممباسا العرب والسواحليين سئموا الخداع والمؤمرات التى ظهرت بين جماعة المزروعى ، ووضعوا خطة للقضاء على بقاء ممباسا تحت حكم المزاريع ، وأرسل القادة رسلا إلى السيد سعيد، يطلبون منه التدخل، والاطاحة براشد بن سالم ، وانتهز السيد سعيد الفرصة لتحقيق أهدافه ، وقرر أنه بدلا من إرسال قواته للقيام بهجمات عشوائية ضد المزاريع ، فقد وضع خطة سياسية مرسومة ، بحيث شجع الاتجاه المعارض للوالى ، ونشر العداء بين رجال راشد ورجال المدينة . حتى إنه فى فبراير عام ١٨٣٧ كان راشد فى وضع لا يحسد عليه ، واضطر أن يقبل أى شروط يعرضها السلطان ، ووافق السيد سعيد على أن يترك راشد واليا ، بشرط أن يغادر هو وأتباعه الحصن ، ويعيشوا فى المدينة ، واستولى السيد سعيد على الحصن بقوة عمانية ، قوامها خمسمائة رجل .

كان هذا الحدث بداية النهاية ، فقد قرر السيد سعيد ان يخلص ممباسا من نفوذ المزاريع ، فاستدعى الوالى إلى زنجبار ، وعرض عليه ثلاثة اختيارات :

أولهما : هدية بقيمة ١٠٠٠٠ ريال ، مع معاش يتقاضاه

طول حياته ، بواقع ٣٠٠ ريال ، بشرط أن يقيم هو ورجاله في زنجبار .

ثانياً : أن يتولى الولاية على مافيا .

ثالثاً : توليه الولاية على بمبا .

غير أن راشد رفض العروض الثلاثة ، التي قدمها له السيد سعيد ، لأنه أدرك أنه بمغادرته ممباسا سواء إلى زنجبار أو مافيا أو بمبا ، فإن ذلك سيعرض حياته وحريته للخطر ، إزاء مؤامرات البلاط الزنجباري ، وأدرك أنه من الصعب عليه ، أن يأمن على نفسه وحياته وحريته ، فعاد إلى ممباسا .

وبعد أسابيع قليلة قام خالد بن سعيد ، أحد أبناء السلطان بزيارة المدينة ، وأقام حفل استقبال في القلعة ، وبعد تبادل الدعوات والاستقبالات استدعى الوالي راشد وأتباعه واحدا بعد الآخر ، بحجة مناقشة الوضع ، ولكنهم احتجزوا في إحدى السفن بالميناء ، ثم أبعدوا إلى بندر عباس ، ولم يعد أحد منهم إلى ممباسا ، ولم يسمع عنهم منذ ذلك الوقت .

ومنذ ذلك الحين أصبح السيد سعيد سيدا على القلعة والمدينة دون منازع له .

وكان أول عمل قام به ، أن عين عبد الله بن مبارك قائدا وحاكما على ممباسا ، واتخذ عبد الله من الحصن مركزا رسميا له ، وخلفه بعد قليل، أحد القواد العاملين تحت إمرة السيد سعيد ويدعى جمادار نانجيه بن شمبيه ، الذى أسندت إليه القيادة العسكرية ، بينما ظل عبد الله بن مبارك قائدا دينيا تحت رئاسته .

وفى ذلك الوقت أى حوالى عام ١٢٥٣ هـ ١٨٣٧ م) ولد محمد بن عبد الله بن مبارك ، وقد توفى والده ، وهو لايزال طفلا ، تاركا إياه تحت وصاية صديقه وزميله جمادار نانجيه ، الذى أخلفه لهذه الثقة التى منحه إياها عبد الله بن مبارك .

وعندما كبر الابن أوصى البلاط فى زنجبار ، بتعيينه قائدا دينيا خلفا لوالده ، ووافق السيد ماجد على التوصية ، وكان قد خلف السيد سعيد ، وعين محمد فى مكتب والده تحت قيادة جمادار ، وكان يؤدى عمله على أكمل وجه ، حتى نال رضاء البلاط الحاكم فى زنجبار من دون أن يسبب وجوده آى مضايقة لشعب ممباسا.

وفى عام (١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م) عندما تولى السيد برغش الحكم فى زنجبار ، بعد وفاة السيد ماجد ، كان أول عمل يقوم به ، هو أداء فريضة الحج ، وفى طريق عودته زار ممباسا ، وطلب من الوالى على بن ناصر أن يصحبه إلى زنجبار ، وعين محمد بن عبد الله كنائب للوالى ، وخلال هذه الفترة قام محمد بن عبد الله بنشاط

كبير في عمله مما أرضى السلطان ، وقد أرسل بعثة تأديبية ضد الزعيم المزروعي الشيخ مبروك بن راشد ، ونجح في احتلال بوه مويلى التي تعتبر أقوى تحصينات الشيخ مبروك .

وتقديرا لهذا عينه السلطان في منصب والى ممباسا ، واستمر في هذا المنصب حتى عاد علي بن ناصر ، فانتقل إلى وظيفته الدينية .

وخلال أربع السنوات التالية كانت تصرفاته مختلفة تماما ، كما سنلاحظ ذلك لاحقا ، فقد عادى قسما كبيرا ومؤثرا من رجال ممباسا المعروفين ، وبناء على هذا فإنه لم يقاوم القيادة في زنجبار فحسب ، بل إنه في عام (١٢٩١ هـ ١٨٧٤م) حصن نفسه في الحصن بعد أن حاول حرق المدينة ، وتحدى السلطان ، ودبر مؤامرة لاغتياله ، فألقى القبض عليه ، وأرسل إلى زنجبار مع عائلته ، ومنها تم ترحيله إلى مكلا ، وبعد فترة من الوقت اصطحب أخاه سعيد بن عبدالله في زيارة قصيرة لمبا ، في طريقه إلى مدغشقر وتزوج يريرا فن سلطانة بمسينا ، وأنجب منها سبعة أطفال .

وبعد أن قمع عدة ثورات ضد زوجته أصبح هو الحاكم الحقيقي للسلطنة فترة امتدت عشر سنوات ، وظل يراوده الأمل في أن يستعيد ممباسا .

وفى عام (١٣٠٦هـ — ١٨٨٨ م) عندما انضم السيد خليفه بن سعيد إلى السلطنة عاد محمد بن عبد الله إلى زنجبار ،وكانت محاولاته فى استعادة ممباسا غير مجدية،فظل فى زنجبار حتى وفاته عام (١٣١٢ هـ ١٣١٤—١٨٩١—١٨٩٦م) فى عهد السيد حمد بن ثوينى .

(٢) العقيدة والشيخ مبروك المزروعى

عندما تولى السيد برغش بن سعيد الحكم ، وتم تعيين محمد ابن عبد الله كنائب للوالى فى ممباسا كان الشيخ مبروك بن راشد بن سالم المزروعى رئيس قبيلة المزازيع المشهورة يخوض حربا ضد حاكم زنجبار ، وقام بعدة غارات على القرى الواقعة على طوال الساحل المعروف حاليا بساحل كينيا ، معتمدا على جيشه غير المدرب من أتباعه ومن العبيد .

وفى عام ١٨٧١ نهب وحرق مدينة فنجا ، ثم أغار على مدينة ليكونى التى تبعد عن ممباسا أميالا قليلة ، ثم عاد إلى مركز القيادة فى جازى بالعديد من الغنائم ، ومنها عدد كبير من الماشية .

ولم ينتظر محمد بن عبد الله فترة طويلة للثأر لتلك الغارة الوحشية على مدينة فنجا ، فأرسل حملة عسكرية بقيادة أخيه سعيد ابن عبد الله الذى استطاع إنزال الهزيمة بقوات الشيخ مبروك ، بعد اشتباك عنيف ، وتمكن من استرجاع الماشية التى كان قد استولى عليها الشيخ مبروك .

وجدير بالذكر أنه وإن كان هذا النصر صغيراً نسبيا ، غير أنه كان إيجابيا ، وأسعد الناس فى ممباسا ، الذين لم تكن لديهم أدنى اهتمامات بالصراع الدائر فى المنطقة .

والأبيات التالية أنشودة بمناسبة الاحتفال بهذا النصر :

« محمد حاكمنا الذى نؤيده كلنا »

« والعمر المديد للقائد سعيد »

« فقد أرجع ماشيتنا إلينا »

ولم يضعف هذا النصر المؤقت من روح الشيخ مبرك التى لاتقهر ، بل بالعكس فإننا نجد أنه كثف حملاته من الغارات ، بشن حرب عصابات ، ووصل إلى مرحلة من القوة جعلت محمد بن عبد الله يعبىء إمكانياته للقبض على رئيس قبيلة المزاريع بأى ثمن .

وفى ذلك الوقت كان بعض أبناء ممباسا يتعاطفون مع الشيخ مبروك ، وقد حاول محمد بن عبد الله أن يحيط ترتيباته بالسرية الكاملة ، حتى لا يتنبه الشيخ مبروك لتلك الاستعدادات ، التى كانت تدبر للهجوم عليه ، ورغبة فى مزيد من الحماية عين حراسا فى العبارات التى تربط جزيرة ممباسا بالقارة الإفريقية ، حتى لا يتمكن أى فرد من العبور ، ومعه أوراق عن أى خطط تتعلق بنوايا محمد بن عبد الله ، غير أن هذا الأسلوب فى حد ذاته كشف نفسه ، إذ أدرك أتباع الشيخ مبروك فى ممباسا ، أن هناك استعدادات سرية للهجوم عليهم ، وقد حاولوا الحصول على المعلومات بشتى الطرق

وكان يوجد فى ذلك الوقت فرقتا رقص فى ممباسا ، تدعى

إحداهمامبورا ، والأخرى موانى ، وكانتا تقدمان عروضهما كل ليلة بمصاحبةالطبول والأغانى ، التى تم تأليفها خصيصا للاحتفالات غير أن بعض الأغانى كان يرتجلها المغنيون ، وهذه الأغانى تعبر تعبيرا صادقا عن الشعر السواحلى ، وحتى تكون هذه الأغانى مقبولةوشعبية ، فقد كان لابدأن تستبعدمنها بعض الأفكار الموضوعية ، وأن تتبع طريقةالنغمة والأسلوب الميلودى ، الذى يتمشى مع القواعد المعروفة فى الإنشاد والسجع والقافية .

وفى ذات ليلة بينما كان محمد بن عبد اللهمشغولا بخططه السرية للقبض على الشيخ مبروك ، وبينما كان حراسه يراقبون الطرق المائية المؤدية إلى ممباسا ظهر فى إحدى احتفالات الرقص رجل يدعى الشيخ سعود بن سعيد المعمرى ، المشهور بشعره السواحلى وبصداقته للشيخ مبروك وبعدائه لمحمد بن عبد الله ، وقرر الشيخ سعود أن يخبر الشيخ مبروك الاستعدادات السرية التى تدبر لاعتقاله ، وأن يفسد الخطط التى كانت تدبر لمنع نقل الأخبار عبر العبارات ، وكانت فكرته بسيطة وذكية ، فقد عبر عن تحذيره لصديقه من خلال الأغانى ، فذهب إلى أحد الراقصين ، واسمه مبورا ، وألف له بعض الأبيات لتحل محل أبيات أخرى فى قصيدة شعبية ، ولم يتنبه أحد من الحاضرين إلى تغيير الكلمات ، نظرا للحماس الذى كان يغمر الرقص والغناء ، ونظرا لأنها كانت تتحدث عن الطبيب الساحر وإلى القصة الشعبية (ثارى لانديا) .

غير أن كلمات هذه الأبيات كانت تحمل فى طياتها معانى أخرى ، مثلها فى ذلك مثل باقى الأغانى السواحلية ، وقد غدت تلك الأغانى الجديدة من تأليف شحر الشيخ سعود أغانى شعبية خلال يوم أو يومين ، وأخذ يتغنى بها أطقم القوارب والرجال والنساء فى العبارات .

وسرعان ماسمع الشيخ مبروك ورجاله فى جازى تلك الأغنيات التى أصبحت أغنيات شعبية ، تتحدث عن ملاحظات ساخرة على راقص مبورا ، غير أن الشيخ مبروك كان رجلا حاذقا وذكيا ، فسرعان مافهم ماتعنيه تلك الرساله المخفية من الشيخ مسعود ، فترك جازى إلى حصنه فى ربوة أموبى ، وبدأ تحصين نفسه وتقوية دفاعاته .

فقد كانت الرسالة واضحة له ، تدل على أن المقصود بالساحر هو العقيدة ، وأن المقصود بكلمة (واتيجى) هم رجاله المسلحون ، وأن المقصود بكلمة (باجارو) قطع الأغصان التى توضع على أكتاف شعب الطبيب الساحر ، ويقصد بذلك حزام الرصاص الذى يستعمله عادة جنود محمد ، بل أكثر من ذلك فقد كانت الأغنية توحى ، بأنه إذا كان رجال ممباسا مسلحين بالسيوف والخناجر فانه لايحق للغريب (محمد بن عبد الله) أن يتدخل ، وعليه ألا يأخذ الشيخ مبروك على غرة) .

وأخيرا فقد كان على الشيخ مبروك أن يفهم، أن ذلك الهجوم المعد لن يكون هجوما بسيطا كالهجمات السابقة ، أو أن أتباع محمد بن عبد الله ضعفاء حيث أنه شبههم بكلمة (وانجارو) أى الراقصين الذين يلبسون الملابس التى تستر العورة حتى الركبة ، ومعهم سيوفهم ، وبمعنى آخر فإنه كان يقصد من كلامه جيش محمد من عرب حضر موت الذين كانوا يرتدون قمصانا فوق الركبة.

ومن هنا فإن المعنى الذى فهمه الشيخ مبروك كان يختلف تماما عن المعانى البسيطة التى استمتع بها راقصو مبورا في أمسياتهم فى ممباسا .

وكما ذكرنا فقد ترك الشيخ مبروك مدينه جازى ، وحصن نفسه فى يوبى ، غير أنه لم يكن هناك وقت كاف لاتخاذ كافة التدابير لمقاومة هجوم خصمه بنجاح ، حيث باغتته قوات محمد ابن عبد الله إلى موين ، واشتبكت معه فى قتال عنيف ، اضطره إلى التقهقر ، وتم الاستيلاء على ربوة يوبى ، كما تم الاحتفال بذلك النصر .

وقد فجع الشيخ سعود صديق الشيخ مبروك من نتيجة المعركة التى كان قد حذره منها ، ودهش من أن التكتيك الذى اتبعه الشيخ مبروك قد قاده للهزيمة . وقد كان النصر الذى حققه رجال

محمد بن عبد الله ذا أثر عميق فى نفوسهم ، حيث عمتهم الفرحة ؛ لدرجة أنهم تصوروا أن الشيخ مبروك قد قتل ، وأرسلوا بذلك الخبر إلى ممباسا .

غير أنهم بعد ثلاثة أيام تبينوا أن الشيخ مبروك لم يقتل ، وأنه بدأ يعيد تجميع قواته فى قرية « ماكونجنى » ، واستمر فى غاراته منطلقا من تلك القاعدة الجديدة ، مهدداً بإثبات كيانه مرة أخرى :

وبالرغم من أن تلك الأخبار قد حطمت آمال محمد بن عبد الله ، إلا أنهم رحبوا بالشيخ مبروك وأصدقائه ، ومن خلال حرارة ذلك الترحيب أنشدوا قصيدة أثرت فى العقيدة وأتباعه ، وهى بعض قصائد المديح .

وقد أساءت تلك القصيدة إلى شعور محمد بن عبد الله ورجاله من حضرموت ، غير أن الفرصة لم تواته للانتقام ، ورأى أنه مادام قد تعذر القبض على الشيخ مبروك فى الحرب ، فلابد من تدبير مؤامرة حاذقة لاغتياله ، وحتى يتحقق هذا الهدف فقد تظاهر بطلب الهدنة مع الشيخ مبروك ، وأرسل إليه رسولا محملا بالهدايا من بينها شيلان ، وأوشحة من الحرير ، وطلب إليه أن يقابله شخصيا على فنجان قهوة لمناقشة اتفاقية السلام .

وعاد الرسول إلى محمد بن عبد الله حاملا نبأ قبول الشيخ مبروك للدعوة ، غير أن الشيخ مبروك اشترط أن يحدد هو هذا اللقاء ، ووافق العقيدة على ذلك ، وحدد الشيخ مبروك ، بمكر و دهاء ، موعد اللقاء ، وطلب أن يكون اللقاء فى قرية صغيرة على بعد أميال قليلة شمال ممباسا ، اسمها مواكى رونج ، حيث يعرف مواقع الأماكن المحيطة بالمدينة .

ولم يتنبه محمد بن عبد الله لهذا الدهاء من جانب الشيخ مبروك ، فجاء متوقعا أن يوقع الشيخ مبروك فى الشرك الذى حاكه له ، وانتشر خبر اللقاء فى مواكى رونج ، وأن محمد سيعود ومعه الشيخ مبروك مكبلا بسلاسل الحديد ، غير أنه فى مواكى رونج تلقى الصدمة ، إذ لم يجد الشيخ مبروك مستعدا برجاله الحربيين فحسب ، بل وجد أيضا أن خصمه قد وضع خططا استراتيجية جعلت محمد ابن عبد الله وجيشه فى موقف حرج ، ونتيجة لذلك اضطر أن يفاوض خصمه على الهدنه ، برغم أن كلا الطرفين لم يقتنعا باتفاقية السلام المشروطة التى تم الاتفاق عليها .

وفى هذه الفترة عاد الشيخ الشاعر سعود إلى ممباسا ، ومازالت ذكرى هزيمة صديقه الشيخ مبروك فى رأسه ، غير أنه عندما علم بما تم بين الشيخ مبروك والعقيدة الذى لم يتمكن من أسر الشيخ ، فرح الشيخ سعود ، وعبر عن فرحه بإنشاد بعض الأبيات ، واستخدم

"الأسلوب المجازى ليصب به السخرية على عدوه ، مشبها محمد ابن عبد الله بالريفى العاشق ، الذى ينشد حب شقراء جميلة متقلبة ، يعنى (الشيخ مبروك) وهى تفضل ويؤثر بحبها أسوأ رجل فى البلد على الرجل غير الأمين (العقيدة) ، وكان لهذه الأبيات ، وهذا التعبير المجازى اللاذع أثر كبير فى نفس كل من أيد وعاون محمد بن عبد الله ، ولا شك أن هذا كان سببا يمكن أن يؤدى بالشيخ سعود إلى السجن غير أنه لم يتمكن من التحكم فى مشاعره أمام جمهوره من المستمعين فى تلك الليلة ، ومازال الكثيرون يتذكرون تلك القصيدة حتى اليوم.

وسرعان ما انتشرت تلك الأغانى المهينة لمحمد بن عبد الله بين العامة ، وأصبح الكل يتغنى بها فى ممباسا ، غير أن عزاء محمد بن عبد الله كان فى زنجبار ، فقد فرح السيد برغش بالأخبار التى وصلته عن خروج الشيخ مبروك من جازى ، وطرده من تحصيناته فى موبى ، واضطراره إلى اللجوء إلى مكان آخر ، إلى جانب ماروا بدلا من أنه يقبل شروط السلام .

وقد حاول السيد برغش عدة مرات إذلال الشيخ مبروك ، وتجريده من قوته فى ممباسا ، غير أنه يبدو أن جهود العقيدة فى ممباسا كانت كافية ليحقق له تلك الأهداف .

وتقديراً لخدمات وولاء محمد بن عبد الله له فقد عينه واليا على ممباسا ، وتم دعوة أعيان البلد من المواطنين إلى الحصن ، وأعلن

الشيخ راشد بن على المنذرى مبعوث السلطان ، رسميا ، قرار السلطان بتعيين محمد بن عبد الله واليا على البلاد ، وقد أدى ذلك إلى زيادة نفوذ محمد بن عبد الله وتمكينه من اتخاذ العديد من الإجراءات .

وجدير بالذكر أن الإهانات التى تضمنتها قصيدة هجاء الشيخ سعود لمحمد بن عبد الله قد أخذت تتعمق فى النفوس أكثر فأكثر . وبالرغم من أن الشاعر حضر الاجتماع الذى أعلن فيه قرار تعيين الشيخ محمد حاكما ، إلا أنه لم يتجرأ أن يقول شيئا فى الحاكم الجديد ، واضطر أن يتجرع الصبر ، سيما وأنه كان متأكدا من أن أول إجراء سيتخذه الحاكم الجديد هو إلقاء القبض عليه وقد تم ذلك بالفعل ، فقبل أن ينفض الاجتماع اعتقل وزج به فى السجن مع بعض مؤيديه وأصدقائه ، وبعض الأعيان ، مثل الشيخ ماجد بن جابر ، ورضوان بن هانى . وأنشد الشاعر الشيخ سعود وهو فى السجن أبياتا ، يرحب فيها بالزملاء الذين أودعوا السجن معه .

وقد شعر الشيخ محمد بن عبد الله أنه قد انتقم لنفسه من الرجل الذى كانت قصائده الهجائية تضحك أهل ممباسا كلهم عليه ، والذى كان شعره أشد وطأة من سيف الشيخ مبروك . ولقد أثبتت الأحداث صحة توقعات الشيخ محمد بن عبد الله ، حيث كان الخطر الحقيقى يكمن فى أشعار الشيخ سعود ، وليس فى سيف الشيخ مبروك.

(٣) الحاكم الجديد وشعب ممباسا

نظراً لأن معظم السجناء الذى تم سجنهم بناء على أوامر من الحاكم محمد بن عبد الله كانوا من بين الأعضاء البارزين فى العائلات الارستقراطية من ممباسا ، فقد كان من الطبيعى أن ينعم الحاكم الجديد ببعض الاستقرار فى مركزه كحاكم ، غير أن الأمور لم تمض على هذا النحو ، فقد دبرت خطة على الفور لتنحيته ، وكان من الضرورى أن يتم ذلك باسترضاء الحاكم وأعضاء أسرته ، وصولا للإفراج عن الشاعر الشيخ سعود ، وقد نجحت المحاولة ، وتم الإفراج عن الشاعر السجين .

وعلى الرغم مما ظهر على سعود من تغير فى مسلكه إلا أنه بدأ يعمل فى هدوء وكتمان للانتقام لنفسه وأخذ ، فى كسب ود الحاكم ، والإعراب عن أسفه لما بدر منه ، وأخيراً نال ثقة المستشار الخاص للحاكم ، وأصبح على علم بكل الخطط والمؤامرات التى تدبر داخل بلاط الحاكم .

وبمجرد أن تلقى القدر الكافى من المعلومات التى تهم البلاط الحاكم فى زنجبار طلب من الحاكم السماح له بالسفر إلى متبو ،

وهى منطقة أصبحت تعرف الآن بتنجانيقا ، وقد سمح له الحاكم بالسفر دون أن يشك فى نواياه .

ولم يكن فى نية سعود المغامرة بالسفر أسفل ساحل مريما ، فقد كانت خطته التى وضعها بعناية وحرص أن يبحر مباشرة إلى زنجبار ، ليبلغ السلطان عن مؤمرات محمد بن عبد الله ، غير أنه بمجرد أن ركب سفينته لم يتمالك شعوره بالفرح لنجاح خطته ، وبمجرد أن تم رفع المرساة وأبحر القارب أطلق نيرانه على أحد القوارب الراسية فى الميناء ، وبذلك كشف عن خطته للقصر ، وبسرعة فطن محمد بن عبد الله المدلول من اطلاق النار من القارب المغادر ، وأمر حراسه بتوجيه نيرانهم إلى قارب الشيخ سعود وأغراقه ، غير أنه عندما فتحت القلعة نيرانها على قارب سعود كانت سفينة سعود خارج مرمى النيران ، وتمكن من الوصول بسلام إلى زنجبار ، واستطاع أن يكسب رد وتأييد بعض المراكز ، كما حصل على وعد من ناصر بن سعيد ، وزير السيد برغش فى ذلك الوقت ، بمساعدته ، تجمع حول سعود عدد من مواطنى ممباسا البارزين .

وفى ذلك الوقت كان الشاعر المشهور محمد بن أحمد المومباسى يعيش مع الشيخ عبد الله بن جابر مدينة مجولى فيمبا ، وعند سماعه بوصول سعود إلى زنجبار فطن إلى غرض الشاعر من تلك

للزيارة وأرسل له هو والشيخ عبد الله بن جابر معربا عن تمنياتهما الطيبة ووعدوه بمساعدته .

وقد كان محمد بن أحمد شاعرا موهوبا ضليعا فى الشعر . وأرسل إلى سعود قصيدة تعرف باسم أغنيه الزيف ، وكانت هذه القصيدة مثل باقى القصائد والأدب السواحلى تعتمد على الأسلوب المجازى ، غير أن نصائح وتشجيع الشيخ محمد بن أحمد لصديقه الشيخ سعود كانت واضحة بين ثناياها .

ونظرا لأن الشيخ سعود كان فى مهمة هامة ، فقد كان عليه أن يتصل سريعا بالمسئولين فى البلاط السلطانى ليطلب منهم تمهيد الطريق له لدى السلطان ، غير أنه كان عليه أن يتذكر أن إدانة محمد بن عبد الله لدى السلطان كانت خطوة واحدة لإنجاح خطته

وجدير بالذكر أن سعود كان مطبوعا على لغة الخداع ، التى تم الإشارة إليها بكلمة (أبجدى) حيث كان عليه أن يكون حريصا كل مايقوله ، كما كان عليه ألا يتوقع أن يظهر له المتعاطفون معه شعورهم بصراحة ، بالرغم من أنهم كانوا يلوحون بقذف الحجارة لإسقاط الطائر ، وبالتالى كان عليه أن يكون صبورا ، وألا يتعجل نتائج جهده ، أما المقطع الثالث من القصيدة فقد كان ينبهه إلى أن يتذكر رجالا آخرين كانوا فى مراكز عالية ، مثل محمد بن عبد عبد الله وأمثاله الذين قد نالوا نصيبهم من الأذى — وعليه أن يتذكر أيضا

أنهم كانوا دائما محتقرين ، وأنه مهما كانت مقاومته فإن الحاكم لايقهر . وليتذكر بورى حاكم سادانى فى عهد السيد ماجد ، وموير كاموانا رئيس وازيبو بجوشهم وعبيدهم وحلفائهم ، والساميا الذين تمردوا على السلطان ،وهزموا جميعا،وكانوا مثلا لسقوط كل من أساء استخدام السلطة .

وليتذكر أيضاً يوانا كيبنج وابا زعيم الزيجو الذى خلف موير كاموانا بعد إسقاطه ، وأصبح قويا جدا — وسار على نفس النهج ، فليكن سعود صبورا وحريصا ، وعندما يحين وقت الضرب فإنه يستطيع مع مؤيديه الضرب بقوة لتحطيم نظام الحاكم الجديد .

وليتذكر أيضا مصير عبد الله مواكيتا زعيم قبيلة ديجيوالذى تحدى السيدماجد، فقدطالب مواكيتابجزيره صغيرة اسمها (موازوى) بالقرب من بانجانى ، كحدود فاصلة بين أراضيه وأراضى السلطان ، وأعلن أنه مستقل فى أراضيه عن السلطنة . وليتذكر الشيخ سعود وماحدث له .

فقد أرسل السيد ماجد مبعوثا يدعى حمد بن سليمان ومعه هدايا وكلاما وديا ،وانخدع مواكيتا بالهدايا والأسلوب الودى لمبعوث السلطان ، وقبل الدعوة ليسافر على سفينة السلطان معتقدا أنه سيقابل السيد ماجد ، غير أنه بمجرد أن أبحرت السفينة بعيدا

عن (موازوى) تم القبض عليه فى المكان الذى ادعى أنه حدود أراضيه .

وقد فرح الشيخ سعود بن سعيد بتلك الصداقة والتشجيع الذى تم التعبير عنه فى إبيات قصيدة محمد بن أحمد ، ورد عليه بقصيدة شكر ، وقد كان المعنى الحقيقى يختفى وراء تعليماته إلى قبطان قاربه يخبره أن يأخذ السفينه بأمان من زنجبار إلى ممبا ، حيث يعيش محمد بن أحمد ، ويسلمه شخصيا الرسالة ، وتتضح هذه التعليمات فى خمس المقاطع الأولى فى قصيدته ، أما المقاطع الست الأخرى فقد كانت موجهة مباشرة للشيخ محمد بن أحمد وقد أكد فيها للشيخ ، أنه وضع فى خطته التخلص من الحاكم وأنه واثق من النجاح .

وفى ذلك الوقت تعددت الشكاوى فى ممباسا ضد محمد ابن عبد الله ، مما أقلق السيد برغش ، خاصة ناصر بن سعيد ، أحد المستشارين الموثوق بهم لدى السيد برغش .

وعلى بن ناصر ، والوالى السابق لممباسا كان يظهران معارضتهما لمحمد بن عبد الله إلى جانب تأييد سعود بن سعيد لهم فى اتهاماتهما لمحمد بن عبد الله . وعليه أرسل السيد برغش ، على بن ناصر كوال لممباسا ، وأمر محمد بن عبد الله أن يعود لوظيفته القديمة ، ويقدم نفسه فى زنجبار ليبرىء ساحته :

وقد اصطحب محمد بن عبد الله في رحلة طبية شريف أنور الذي كان يمارس السحر بجانب الطب ، وكان عليه أن يثبت إخلاصه لسيده بكفاءته في السحر ، وبمواجهة محمد بن عبد الله باتهامات سعود بن سعيد في حضور السلطان ، استطاع محمد بن عبد الله بلباقته وذكائه ، أن يدفع عن نفسه عدداً من تلك التهم ، حيث ذكر أنها كانت نتيجة المؤمرات والخداع والحقد من الرجال الذين كانوا يظهرون ولاءهم للسلطان ، بينما هم خونة في حقيقتهم واتباع للشيخ مبروك .

وتنبه سعود إلى التحول في الموقف واحتمال أن يتحول ضده وسرعان ما وقف ، وأشار بأصبعه إلى المتهم محمد بن عبد الله ، وصاح « سيدي السلطان هذا الرجل يستخدم السحر » : إنه يامولاي في هذه اللحظة تبدو عليه جاذبية ساحرة » ، وكان هذا اتهاما جريئا ، ولكنه كان ناجحا ، فأمر السلطان على الفور أن يعترف محمد بن عبد الله أو يدفع بادعاء سعود ، وهكذا أجبر على الاعتراف ، بأنه كان يرتدي عددا من الأثواب الجذابة الساحرة التي صممها له طبيبه ، وانكشف محمد بن عبد الله ، وأمر السلطان بعزله ، وسر الشيخ سعود وأعوانه لنجاح خطتهم ، وعبر عن هذا الشعور بقصيدة وارسلها إلى صديقه محمد بن أحمد .

وأقلق ذلك الوضع محمد بن عبد الله حيث فقد مركزه ، وفقد

ثقة السلطان ، كما اعتقد سعود أن محمد بن عبد الله لن يعود إلى ممباسا ، وفى اللحظة الأخيرة توسط صهره محمد بن على باكشمر لدى السلطان ، وطلب العفو عن محمد بن عبد الله ، وقبل السلطان الالتماس ، وسمح لمحمد بن عبد الله بالعودة إلى ممباسا برغم معارضة أغلبية شعب ممباسا ، وكذلك بالرغم من النصيحة التى قدمها جمدار لالا (قائد الحامية السلطانية فى زنجبار) بعدم عودة محمد بن عبد الله إلى ممباسا ، وبمجرد أن نزل محمد بن عبد الله من قاربه فى ميناء ممباسا ، واتخذ طريقه إلى الحصن وسط حشد المتفرجين اخترق آذانه أغنية شعبية ، ومنذ ذلك الحين بدأت حياته السياسية تتدهور ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى غطرسته وتكبره ، فحطم نفسه بنفسه ، وخذل جمدار تانجيه القائد الحاذق الماهر الذكر ، وكون لنفسه أعداء ، وأغضب السلطان ، واختلف مع رجال البلاط ، وجعل من نفسه إنسانا مكروها من الشعب ، ولم يبق إلا أن يكمل الشعب تحطيم الباقى من حياته السياسية .

(٤) سقوط العقيدة

بعد عودة محمد بن عبد الله من زنجبار إلى ممباسا أصبح أكثر طغيانا معتقداً أن السلطان لن يعير التقارير التى ترسل ضده أى اهتمام ، فصب جام غضبه على شعب ممباسا ، وانتهز الفرصة للإساءة فى معاملة الشعب ، وسئم شعب ممباسا من كثره التوجه بالشكوى إلى زنجبار ، غير أنهم تمكنوا من الحصول على تأييد مصطفى ابن الصديق القديم لمحمد ، ومستشاره ، والذى كان فى وقت من الأوقات جمادار تانجيه ، وبمساعدة مصطفى تمكنوا أيضا من الحصول على تأييد الحرس . وكثرت الشكاوى ضد محمد بن عبد الله ، وأدرك السلطان أن الأمر أصبح خطيرا جدا، وأنه يجب استدعاء محمد بن عبد الله واتخاذ إجراء حازم ضده ، فقرر حرمانه من وظيفته ، وعليه تم إيفاد محمد بن سليمان البوسعيدى وزير السلطان إلى ممباسا لإعلان عزل العقيدة . ووصل الوزير يوم ٢١ جمادى الثانية ١٢٩١ هـ (٥ أغسطس ١٨٧٤ م) وقابل كبار رجال الدولة ، والوالى سالم بن خلفان ، وولد شبيه ، واشتكى الجميع بمرارة من الإجراءات التعسفية التى فرضها عليهم العقيدة ، واستمع الوزير لتلك الشكاوى مدة يومين ، استعرض خلالها الموقف ، وفى اليوم الثالث طلب من محمد بن عبد الله أن يحضر وترأس العقيدة حاشيته بكاملها ، وقدم نفسه إلى مكان الاجتماع ،

ومعه حارسه ، وحينئذ قرأ الوزير قرار السلطان بعزله ، وسلمه الوثيقة الدالة على ذلك ، فأجاب العقيدة بأنه سيطيع أوامر سيده السلطان ، غير أنه طلب اجازة ليعود إلى الحصن ليسلم المفاتيح رسميا ، وسمح له بذلك .

ولم تكن فى نيته تسليم المفاتيح ، وعندما دخل الحصن أمر باغلاق الأبواب ، ودعا رجله الثانى سعيد بن على الدوان ، وبعض الرجال الموثوق فيهم للاجتماع به فى غرفته الخاصة ، حيث شرح لهم خططه للانتقام . وقال إنه متأكد من أن مصطفى بن جمدار نانجيه وقائد الحرس كانا أساسى هذه الحركة ، وعليه فانه سيحاربهم فى القلعة حتى يستولى عليها كاملة ، ويسيطر عليها .

ونشب صراع بين رجاله والحرس ، حيث اتخذ كل فريق جانبا فى الحصن ، يتراشقان بالنار . ولم يقلق الوزير محمد بن سليمان والوالى سالم بن خلفان بخصوص مايجرى فى ممباسا التى شهدت أكثر من متمرد ضد السلطنة ، وأخذ مكانه فى القلعة ، وتحدى كل المحاولات للعزل ، غير أن الوزير والوالى كانا متخوفين من عاقبة استيلاء محمد بن عبد الله على الحصن ، وغضب السلطان عليهما من جراء ذلك فأرسلا بعض قيادات الأهالى يطلبون من محمد بن عبد الله وقف القتال ضد البلوش ، غير أنه

لم يستمع إليهم واستمر فى القتال مصمما على سحق الحرس ، ولكن الحرس كانوا رجالا مدربين وقادرين على الصمود ، وفى النهاية طلب الوزير والوالى من محمد بن على بن منصور الهنائى أن يستخدم نفوذه لاقناع العقيدة بوقف القتال ، وجدير بالذكر أن محمد بن على بن منصور كان من أعيان البلاد الذين نالوا ثقة العقيدة ، بالرغم من عدم تأييده لأساليب العقيدة ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، إذ رفض محمد بن عبد الله أن يفتح أبواب القلعة خوفا من الأسر .

وفى ذلك الوقت وصلت تعزيزات لقوات الوالى من ماليندى وتاكونجو وجازى ، وطيرت أخبار إلى زنجبار بسيطرة محمد ابن عبد الله على القلعة مما أثار غضب السيد برغش لهذا التحدى السافر ، غير أنه لم يكن من السهل أن يستدرج إلى حصار للقلعة ، كما فعل سلفه حيث طرد محمد بن عبد الله بالقوة ، وكان الموقف يتطلب تراشق النيران من كلا الطرفين الأمر الذى قد يؤدى لخسارة فى الأرواح لكلا الطرفين وبعض الخسائر المادية الجسيمة للقلعة والمدينة .

ولذا قرر السلطان أن يستدرج محمد بن عبد الله خارج ملجئه بخطة ذكية ، فطلب من صهره محمد بن على باكشمر الذى كان قد توسط لدى السلطان بالعفو عن محمد بن عبد الله

عندما كان فى زنجبار ، بأن يتوجه إلى ممباسا لإقناع محمد ابن عبد الله بالتعقل ، ووصل باكشمر إلى ممباسا ، وبعد مناقشة طويلة مع العقيدة أملاقى أن يقنعه بأن السلطان لم يعد يرغب فى عزله ، وطلب منه أن يوقف القتال مع الحرس ، وأن يفتح أبواب القلعة ، وقد لعب عامل الوقت دوراً هاما فى إنقاذ الموقف ، ومن الصعب أن نفهم كيف أن العقيدة ضلل نفسه باعتقاده ، أن السلطان سينسى كل أفعاله السابقة ، وبينما كان يعتذر رسميا للوالى طرد الحرس من الحصن وبعثهم فى المدينة ، وعندما غادر الوالى والوزير ممباسا ليقدما تقريرهم للسلطان فى زنجبار ، رفض محمد بن عبد الله أن يصطحبهما إلى زنجبار خوفا من السجن ، وأرسل أخيه سعيد بن عبد الله ليقدم الاعتذار نيابة عنه للسلطان .

ولم يعد السيد برغش يشك فى حقيقه التقارير التى ذكرها الشاعر سعود بن سعيد ضد العقيدة ، وقرر طرد محمد ابن عبد الله من الحصن ، وعزله من وظيفته .

وفى أوائل يناير عام ١٨٧٥ أرسل السيد برغش إلى ممباسا ثلاث سفن محملة بالجنود العرب العمانيين تحت رئاسة الأمير سيف آل عمرو وبصحبه مطر بن محمد ، وكانت لديهم أوامر

بإخراج محمد بن عبد الله من الحصن ، وبعدم استخدام القوة إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وهبطت القوات فى كيلندنى وتمركزت فى ثكنات بالقرب من نوياكو ، على بعد مئات قليلة من الياردات من الحصن ، وأدرك محمد بن عبد الله الهدف من ذلك الإنزال ، فأصدر أوامره لرجاله فى المدينة أن يتجمعوا فى الحصن فى تلك الليلة بأسلحتهم .

وفى الصباح التالى ١٤ يناير ١٨٧٥ م خرج من الحصن بقواته وهاجم قوات السلطان فى الوقت الذى أصدر فيه أوامراه بحرق مدينة ممباسا .

ودار صراع وحشى بين قوات العقيدة وجيش السلطان ، وإن كانت قوات الأخير أكثر مهارة من قوات العقيدة ، وقد ساندت جيش السلطان بقيادة سيف آل عمرو قوات والى ممباسا ، حيث هاجموا قوات العقيدة وشتتوهم ، وأصابتهم بخسائر جسيمة ، مما اضطر بعضهم إلى العودة إلى الحصن ، حيث كان العقيدة يحتمى هناك ، وقد عانت قوات السلطان من بعض الخسائر ، وكان من بين الجرحى الشيخ محمد بن على بن منصور الهنائى الذى دافع بضراوة عن بيت الجمارك ضد قوات العقيدة ، ثم وصلت تعزيزات أخرى من قوات السلطان فى (ماليندى) بقيادة والى

المدينة سليمان بن محمد ، كما وصلت تعزيزات من تاكونجو بقيادة سالم بن خميس نيابة عن أخيه الشيخ راشد بن خميس ، بالإضافة إلى بعض الرجال المسلمين من مؤيدى المتمرد السابق الشيخ مبروك بن راشد المزروعى ، الذى تصالح فيما بعد مع السلطان ، ووجد محمد بن عبد الله نفسه محاصرا ، وإن كان محصنا فى القلعة ، فرفض أن يستسلم واضعا فى اعتباره أنه سبق وأن حوصر الحصن عدة مرات ، غير أن الحصار لم يكن مثمرا .

ونظرا لموقع الحصن المنيع بعث القائد بالموقف إلى زنجبار ، وكان السيد برغش يتبع أسلوب السيد سعيد فى المسائل المتعلقة بممباسا ، فاستشار بريطانيا ووضع الأمر كله أمام مستر «بريديوكس» المستشار العام فى زنجبار ونائب الممثل السياسى لصاحب الجلالة ، وبناء على توصيته تم إيفاد ضابطين إلى ممباسا للسيطرة على الموقف ، وذلك بإعطاء الفرصة لمحمد بن عبد الله لترك الحصن بسلام ، دون قتال إلا إذا تطلب الأمر .

وعند وصولهما إلى ممباسا أرسل القائد مترجمه عيسى مرعى بطلب رسمى لمحمد بن عبد الله يطلب منه مغادرة الحصن ، وإلا فسيتم تدميره ، ورفض محمد بن عبد الله الإنذار ، وقال ، إنه ولد فى الحصن ، وعين حاكما فيه ، وعاش حياته بين جدرانه ، وأن أحدا لا يستطيع أن يعرف كيف يتعامل مع شعب ممباسا ، كما يعلم

هو ، وأعلن أنه لن يسلم الحصن أو المنصب ، وعاد عيسى مرعى بتلك الإجابة ، وأخبر القائد بما سمعه من محمد بن عبدالله، فأمر القائد بتهديد مبدئى بضرب الحصن ، ورد محمد بن عبد الله على النيران بالمثل ، وتم تبادل القذائف بين الجانبين ، ووقعت خسائر مادية جسيمة للحصن ؛ كما سقطت بعض الدانات على جدران الحصن فاخترقت بعضها ، وتبين محمد بن عبد الله بأنه فى موقف أضعف من خصمه ، حيث كان من السهل على قدائف خصومه أن تخترق التحصينات الداخلية فى الحصن ، بينما كانت ضرباته لاتصل إلى سفن السلطان ، ثم قرر محمد بن عبد الله أن يشعل مخزن الذخيرة بالحصن ،فيهدم الحصن على من فيه ، غير أن نائبه سعيد بن على الدوان عارض الفكرة ، وقال له ، إنه من الأفضل أن يستسلم بشجاعة ، أو يرفع علما أبيض للهدنة ، بدلا من أن يضحى بالنساء والأطفال الذين يعيشون فى الحصن .

وأمام هذا الأمر أعلن محمد بن عبد الله استسلامه،وأراد أن يتوصل إلى اتفاق مع القائد البريطانى ، وثارت فى نفسه عدة تساؤلات ، هل سيقبل القائد البريطانى اعتذار محمد بن عبد الله أم لا ؟ هل سيتركه يعيش فى الحصن ويرجو السلطان أن يعفو عنه أم لا ؟ أو على الأقل هل سيتركه فى مماسا ويحمل اعتذاره للسلطان ؟

غير أن القائد البريطاني تجاهل كل هذه النقاط ، وقال له : أن لديه أوامر بالقبض عليه وترحيله إلى زنجبار كأسير ، وهناك يستطيع أن يشرح للسلطان شخصيا ماحدث ، وللسلطان أن يقرر مايتخذه من إجراءات في ذلك الشأن ، واصطحبوا معهم محمد بن عبد الله إلى زنجبار ، وفي هذه الأثناء كان الشاعر الشيخ سعود نشيطا ، فبمجرد أن سمع عن إرسال البعثة العسكرية لممباسا ، أسرع وطلب من السلطان أن يسمح له أن يزور عائلته في ممباسا ، وسمح له بذلك ،فتمكن من حضور لحظات الانتصار على محمد ابن عبد الله ،وتمنى أن يواجه عدوه وجها لوجه ، غير أن وجود البعثة العسكرية حال دون ذلك ، وعلى ظهر السفينة التي كانت تقل محمد بن عبد الله اقترب الشيخ سعود من القبو الذي احتجز فيه محمد بن عبدالله ،وتبادل الإثنان الكلمات القاسية ، حتى صدرت الأوامر بمنع تقابلهما على سطح السفينة مرة أخرى :

ولم يتمالك الشيخ سعود نفسه ،فعبر عن فرحته بهذا النصر ببعض الأبيات ، وتشير هذه الأبيات إلى كثير من العادات العربية والسواحلية ،التي يصعب ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ،بنفس الأسلوب والطريقة التي عبر بها الشيخ سعود في فرحته ، وفي زنجبار حاول محمد بن عبد الله أن يستسمح السلطان شارحا له أسباب تصرفاته ،

غير أن السلطان ارتأى ، أنه لايوجد عقاب له أكثر من إبعاده إلى « ميكل » التى عاش فيها لمدة إثنى عشر عاما قبل وفاته ، وقد حاول أن يعود إلى ممباسا طالبا العفو من البلاط السلطانى فى زنجبار غير أنه لم ينجح فى مساعيه .

* * *

منظومة (والعقيدة)

من المعلوم أن قصص التاريخ السواحلى تدون فى صورة قصائد ، وقصة العقيدة مثلها فى ذلك مثل القصص التاريخية دونت فى شكل قصيدة من نوع خاص يطلق عليه بالسواحلى « أوقندى »

ومؤلف هذا العمل هو عبد الله بن مسعود بن سالم المزروعى الذى ولد عام ١٢١٢ هـ (١٨٩٧ م) وتوفى عام ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) فى تاكونجو ،وقد ألف العديد من الأعمال أهمها (الحديثى يابرسيس والحديثى ياهسينا) وهى من الأشعار الرومانية ، وتدور فكرة منظومة « والعقيدة » فى بعض جوانبها عن حياة المؤلف نفسه ،حيث أن والده مسعود بن سالم كان أحد المزروعين الذين تم إبعادهم إلى بندر عباس ،فى عهد السيد سعيد بن سلطان ، مما عارض فى تعيين عبد الله بن مسعود فى وظيفة العقيدة فى ممباسا ، وهى الوظيفة التى كانت خاصة بقبيلة المزروعى .

وجدير بالذكر أن هذه المنظومة لاتتبع التكوين الشعرى الصحيح غير أن إيقاعها دراى ، كما أنها ليست فى مستوى

زوائع الأدب ، وأن كان مؤلفها من مشاهير مؤلف الأغانى ، غير أن المنظومة تفتقر إلى الاستمرارية والجاذبية ، وبالتالى فإنها لاتقف فى مستوى أشعار ميوكا بن حجى ، أو أشعار الشاعر سعود بن سعيد ، أو أشعار محمد بن أحمد وبالرغم من ذلك فان هذه المنظومة تعتبر سجلا رائعا لحياة العقيدة وبالتالى فانها تستحق تلك المكانة التى تتمتع بها .

ترجمة العقيدة

ـ لقد تجمع حشد من أتباع الساحر ، وجلبوا معهم حبالهم المخرزة .

ـ فانتظر أن تأتى قبائل الروح الحارسة لهذا الغريب العفن .

ـ أيها الساحر كن مستعدا لملاقاة هؤلاء الذين يثبون لسيوفهم

ـ بالسيوف المسلولة وبالخناجر ترقص واليكينديى

ـ وهناك يقف الغريب ليلاحظ ما يحدث

ـ والآن ياراقص ميورا ، دعنا نتلاقى فى لقاء سريع

ـ ياراقصى ميورا فكروا ولا ترقصوا رقصات قديمة بالية

ـ رقصات يرقصها رجال عداءون جسورون

ـ ولكن قفوا فى العراء وأظهروا شجاعتكم التى يسجلها التاريخ

* * *

ـ عندما نهب فنجا وقف الرجال مندهشين

ـ وأخذ يلعق شفتيه بينما ترعى الماشيه التى استولى عليها

— والآن فان حاميته مويلى تتدمر

— عندما نهب « متونج » تحدى كل أعدائه

— ودعم العبارات وتم خديعته من كل مكان

— وبسقوط مويلى لسعيد انتهى كبرياؤه

• • •

— هل يكون لرجل ملىء بالحكمة ، لدرجة لاتصدق ، أن يخدع

- أيها الحشرات (البراغيث) بأكاذيبكم الغبية تخدعون أنفسكم

— اين هو ؟ لقد ذهب النسر بصغاره

— لقد أرسلت لها الهدايا والعجائب لخطب ودها

— أرسل لها الشيلان والأوشحة الحريرية المشغولة بالذهب المطرز

— لكن مبورا لايرضى بالزواج منه

— البنات الطيبات لايتزوجن فى السر

— فالعروس يلزمها أن ترقص فى الوقت الساطع

— حيث ترى جمالها و نضارتها

— وأعلنت مبورا بروح الفخر والتعالى

— من الرجال لا يوجد من هو وسيم ويستحق الإعجاب

— فأنا سأتزوج نامتا أو مبوارا عمر

— وهدايا العشيق من الملابس والعجائب التحف

— رفضتها هذه العروس بخفة

— رافضة أن تلبس الخلخال الثقيل غير الظاهر للعيان

— وقالت بأسف واحتقار

— بالرغم من الهدايا والمهر المقدم لها

— أنا لن أتزوج بهذه السرية

— هذه المرأة لن تتزوج إلا رجلها

— رجلها الحقيقي هو الشيخ ذو الثمان رؤوس

— تعالوا وزفوا هذه الفكرة ، إذا كنتم تشكون أنها تقرأ

* * *

— كنت الثور الوحيد فى القطيع فى الزريبة يعرف الطريق

— وبعين مليئة بالحزن والأسى رحلت عن عشيرتى ذلك اليوم

— ولكن فجأة سمعت أصدقائى ورءوسهم عارية تحت أشعة الشمس الحارقة .

ـ ورأيتهم قادمين والذلة تربطهم فى رؤوسهم الخ

* * *

ـ ايها المبعد ، لاتتلكر أذهب ولا تنتظر دى المكانة

ـ أذهب الآن ولا تنتظر ، تعجل فانه صديق لى

ـ وقل له لاتقلق ، اذهب حيثما تشير البوصلة

ـ ربما تكون منظماتنا هادئه الآن غير أن أهدافنا غير مزورة

ـ مرحبا بك شيخ مسعود ، هذا ما أقوله لك

ـ وبالرغم من معرفتك للسفه والمكر والدهاء فان الحديث يجب ألا يكون صريحا .

ـ تذكر أن الساعة لاتبطئ ، ولكن مصلح الساعات كيف يعمل بحرارة

ـ ربما تكون منظماتنا هادئه الآن ، غير أن أهدافنا غير مزورة

ـ فكر للحظة ، تذكر كيف مر السابقون فى طريقهم

ـ رجال من المشاهير والعظماء وكيف انتهوا ؟

ــ مثل الأطفال الذين يرقصون ساعة فانهم لا يرقصون طول الليل
ــ ربما تكون منظماتنا هادئه الآن غير أن أهدافنا غير مزورة
ــ « موميركا مواتا » « وبورى » كان لديهم زنوج كثيرون
ــ كانوا عبيدا لهم حقا مع « واساميا » فى طريقهم
ــ وعندما بدأ العدو وظهرت لى نهايتهم دعوت لهم
ــ ربما تكون منظماتنا هادئه الآن غير أن أهدافنا غير مزورة
ــ أين الآن « مواتا كنيج وابا » ؟ لقد انتهى صوته إلى الأبد
ــ تذكر العاصفة فى الميناء عندما زأرت الأمواج وزبدت
ــ أيعرف الإبن أباه ولم يعرف الرجل منزله
ــ ربما تكون منظماتنا هادئة الآن غير أن أهدافنا غير مزو . ة
ــ الأسد يثير الذعر مركبا يقف بقوة منفرج الساقين
ــ فى مرمى كان القانون كلمته ولم يعترض طريقه أحد
ــ غير أن أسياده نصبوا لهم الشراك أصبحت موازى بقرا آلة
ــ ربما تكون منظماتنا هادئه الآن غير أن أهدافنا غير مزوره
ــ أبناء ماتاكا فى مدينة بته عظماء وكبار
ــ كانت أراضيهم شاسعة ومدنهم كبيرة

— غير أنهم وقعوا فى الحقد وتتألم لهم اليوم

— ربما تكون منظماتنا هادئه الآن غير أن أهدافنا غير مزوره

* * *

— أيها المبعوث الذى أرسل إلى أخذ إجابتى

— يامن أتى عند صديق عزيز له محبتى

— لاخوف أن تفقد النسيم ولا خوف أن تهدىء من الرياح

— أخبره أن الزيف انتهى وهذا واضح لنا جميعا

— انتظر الرياح الشمالية الغربية للاقلاع إلى مانجا بوانى

— ارفع شراعك العظيم واجعل الشراع الرئيس مستعد .

— ابحر ولاتخف من الرياح ، ووجه السفينة ولاتسترح حتى « مكوكو تونى »

— وعند شاطىء الجزيرة لاتنس أن تطوى الشراع

— وعند أرض الرياح « نجيزى » تأكد أنك تسير مستقيما ولاتخف

— اذهب فى قناة « ميونى » فهذا طريق السلامة لك

— ثم سر محاذيا للشاطىء وابحر إلى « مجولى »

— ابحر إلى شيخ مدينة مجولى وشريف العرب وبلطف

— اعطه كلمتنا بأن النهاية اقتربت

— وعندما تذهب للشاطىء لزيارة الشيخ المعروف،

— احترمه جدا ولا تأت بعمل يضايقه

— فهو ينشد محمد ذلك الرجل المشهور بمدينتنا

— بالرغم من أن منظماتنا هزمت فإننا مخلصون لولائنا

— ياشيخ ممباسا اسمع لقولى

— أنت تتعجل دقات الطبول عندما يضربها الموسيقيون

— وبالرغم من أن منظماتنا هدأت فإن النهاية ليست هنا

— أننى أختار البنود الرئيسية للعمل بدقة فعملى ليس بدائى

— فأنا لم آت للربح ولكنى رحلت بعرض الشاطىء

— إنى أنشر الأخبار مثل كبير الخطباء عن الماضى

— وبالرغم من أن منظماتنا هدأت إفلا نهاية للزيف هنا

— إخوانى والأطفال قد يرقصون الليل

— غير أنه لايوجد ماء لسقى الأزهار ولا للطعام

— ففى اليوم الذى أصل فيه الميناءوأجعل السفينة تسير بسرعة

— سوف ألهب الصراع باللحن الجميل وأضع نهاية للزيف

— إن أشياع ساحرنا مسلحون تماما

— وعند سؤالهم أين تذهبون يقولون « إلى القافلة »

— وعندما نطلب منهم الانتظار يعترضون ويقولون، اليوم هو الذى نخطط له

— ورغم زوال مصدر الألم فان نهاية الزيف ليست هنا

— راشد وسليان لم يتمكنا من البقاء فى الحصن

— فقد كانا مثل الشمس المحرقة ولا يخشيان شيئا

— كان لديهما أسلحة ومدافع من كل نوع

— ولكنهم أتوا فى العراء وكانت هذه نهاية الزيف لهم

— كم من خدعة دبروها ، وكم من فخ أعدوه

— فقد أحضر الليمون للعصفور غير أن العصفور هرب من العش

— ولم يبق للحكام غير الاضطرابات

— فبالرغم أن منظماتنا هدأت فلا نهاية للزيف هنا

* * *

— لقد قتل سهم مسموم فى الربيع

— لقد رمى بالرماح والسهام مثل سهام ساى

— إنه يبحث عن زرقة الغريق ، إنه يعرف إنه ميت

— من هذا الذى فقد اليوم ؟ لاعودة إلى «كونجويا»

— من هذا خارج المعروف برشاويه وسحره المفقود
— ساحر ، أن لم يكن مشعوذا ، فالنهر قد عبر إلى دونجا
— مثل النسر المصاب بطلقة ، وطار من شدة الذعر
— إنه لايذهب أبدا إلى جنوا ، أنه بعيد عن «كونجويا»
— لقد بدأ قاربهم يسرب المياه ولا يعرفون انه يغرق
— الرفيق وصهره يفكرون فى الاعتذار
— غير أن قاربى الخشبى اصطدم وتحطم ، أنه يغرق الآن
— فى عهد «الوتن لاتا» الذى انحنى له العرب قبل الإسلام
— وضع الرفاق أيديهم علينا وأظهروا لنا من العذاب ألوان
— والآن بعد فترة قصيرة فإننا محجوبون فى معركة حربية
— قصر كسرى أجر جزءا جزءا
— لقد تم ضربه بالثعبان وأقدامه تشققت
— لاتعتقد أن هذه نكتة أو خفه
— فقد تركوه بظمأ وجراره بدأ يشعر بالحمى والموت بالعذاب،
— قصر كسرى أجر جزءا جزءا
— وجهه أصبح شاحبا وعيناه وسعت من الخوف
— لأنه يعلم أنه بإرادة الله أن قدره فى الآخرة

— ليكن مصيره الجحيم ولا يقرب المغفرة أو النجاة

— قصر كسرى بيع جزءاً جزءا

— لقد ضرب بالسهام من الخلف ومن الإمام

— وبمثل ضربة السيف القاتلة ضربته كنغمة عاصفة

— فليحق ولا يعش للنهاية ، فليعش وهو يتحمل الآلام
كالببغاء المذبوح

— قصر كسرى أجر جزءا جزءا

* * *

راجعه وأشرف على طبعه الأستاذ عبد المنعم عامر

رقم الإيداع بدار الكتب ٣١٦٧ لسنة ١٩٨٠

مطابع سجل العرب
٩ شارع عماد الدين بالقاهرة ت ٩٣٣٧٠٦

To: www.al-mostafa.com